وثمة إجماعٌ من أهل التفسير كما يقول القرطبى فى تفسيره[1] على أنّ نفى القرآن الكريم أن يكون الدعىّ بمنزلة الابن الحقيقىّ إنّما نزل فى زيد بن حارثة ﷺ. ويقول القرطبىّ أيضاً بشأن الآية الكريمة التّالية[2]: روى الأئمّة أنّ ابن عمر قال : ماكنّا ندعو زيد بن حارثة إلاّ زيد بن محمّد حتّى نزلت : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ . وكان زيد فيما روى عن أنس بن مالك وغيره مسبياً من الشام ، سبته خيلٌ من تهامة . فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة . فوهبته خديجة للنّبىّ ﷺ فأعتقه وتبنّاه فأقام عنده مدّة . ثم جاء عمُّه وأبوه يرغبان فى فدائه . فقال لهما النّبى ﷺ ، وذلك قبل البعث : خيّراه ، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء . فاختار الرّق مع رسول الله ﷺ على حرّيته وقومه . فقال محمّد رسول الله ﷺ عند ذلك : يا معشر قريش اشهدوا أنّه ابنى يرثنى وأرثه . وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك فرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا .

إنّ حديث القرطبىّ يتعلق بنزول الآية الكريمة التّالية كما تبيّن ، وقد عرفنا أنّ محور الآيتين الكريمتين هو هذه القضيّة الثالثة . قضية التّبنّى ، وليس ثمّة مانعٌ كون القضية الأولى ، وهى الادّعاء بأنّ ثمّة رجلاً له قلبان اثنان ، هى سبب نزول الآية الكريمة ، وأنّها كانت توطئة لقضيتين اثنتين تتجهان من حيث الأهمية إلى أعلى صعداً بحيث يتكوّن من القضايا الثلاث ما يشبه أهرامات ثلاثة ، صغيراً وكبيراً وأكبر ابتداءً بالاعتقاد الخاطىء بكون رجل واحد من قريش أو سواها له قلبان يعقل بكل واحد منهما ، حسب زعمه ، أفضل من عقل محمّد[3] .

وإنّ مثل هذا الادّعاء من الرّجل القرشى أو من سواه ، بأنّ له دون غيره قلبين عاملين بانتظام ، ممّا كان ينطلى على العرب قبل الإسلام ويشيع بينهم شيوع ظاهرتى الظّهار والتّبنّى . وإنّ ربّ العزّة ، خالق الإنسان فى أحسن تقويم ، ينفى وجود شخص واحد له قلبان عاملان . وبتدبُّرنا لصيغة النّفى تتبين الصّيغة القويّة حقّاً فى

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٠ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٠ وانظر الكشّاف ٥٢٩/٢ .
(٣) لباب النّقول ص ١٧١ .

ترسيخ النّفي . فنحن بصدد تنكير لفظ الرّجل ، ممّا هو دليلٌ على تعميق نفى وجود رجل واحد ، فى كل زمان ومكان تلك صفته . وبصدد من الّتي تعمّق نفى وجود القلبين العاملين لدى ذلك الرّجل . وإنّ لفظه الجوف الّتى تعيّن المقصود بالقلبين بسبب تعيين المكان ، مسعفة المتدبر لقدرتها التّصويريّة على أن يرفض مثل ذلك الادّعاء . يقول الزّمخشرى[1] : « والتنكير فى رجل وإدخال من الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى كأنّه قال : ما جعل الله لأمّة الرّجال ولا لواحد منهم قلبين البتة فى جوفه . فإن قلت : أىّ فائدة فى ذكر الجوف قلت : الفائدة فيه كالفائدة فى قوله القلوب الّتى فى الصّدور . وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه ، لأنّه إذا سمع به صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين ، فكان أسرع إلى الإنكار » وهذا الرّفض يمكن أن ينظر لـه من غير مازاوية واحدة .

إنّ فى الإمكان أن ينسحب الرّفض على الوجود الحسى للقلبين فى جوف رجل واحد أو فى صدره . وإنّ لفظة القلب ، بسبب أعماله المتعدّدة المتنوعة المختلفة المتناقضة ، فى الإمكان أن تجعل الرّفض لهذا الادّعاء منطلقا من تلك الأحوال المؤتلفة المختلفة ، المتماثلة المتباينة الّتى تصدر عن القلب ذاته ، بحيث يستحيل معها وجود قلبين فى جوف رجل واحد يمكن أن يصدر منهما عملان اثنان فى آن واحد ، لأنّ واقع الإنسان الّذى يعيشه دائماً ، يقضى باستحالة ذلك . فلو أننا نظرنا إلى عمل القلبين من زاوية الائتلاف معاً أو من زاوية الاختلاف معاً ، لانتهينا إلى أنّ فى أحد القلبين الغناء . فكما أنّ الإنسان من الوجهة الحسيّة يحتاج إلى قلب واحد فقط ، كذلك من النّاحية المعنوية ، هو لا يحتاج إلى غير ذلك القلب الواحد . إذ ما فائدة قيام عضوين بعمل واحد يستطيع أحدهما أن يقوم به بكفاءة عالية ؟ ونحن إذا نظرنا إلى كفاءة القلب من النّاحية الحسية تبينا أنّها كفاءة تنبىء بقدرة الفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السّماء . فالقلب ، وهو بمثابة المحرّك فى الآلات ، هو الآلة الوحيدة الطبيعية الّتى تستطيع أن تعمل دون توقّف إلى أن يشاء العلىّ القدير لها أن تتوقف . فلا يستطيع أىّ مخلوق أن يعيد الحياة إليها .

---

(١) الكشّاف ٢/٥٢٩ .

أين هي الآلة البشرية التي تستطيع أن تعمل دون توقف أو راحة فترة قصيرة بالقياس لقلب الانسان الذى يصح أن يتجاوز المائة عام من العمل المستمر الدائم الذى لا يعرف في حال اليقظة أو المنام راحة أبدا ، لأن الراحة تعنى الوفاة حتما ؟ ليس هنالك آلة بشرية واحدة تستطيع أن تقوم ببعض عمل القلب المنتظم سنوات وسنوات ، وبدقة عجيبة ، وبكفاءة مذهلة . فبالنظر الى القلب من الناحية الحسية هو كفاءة عجيبة ، فلاداعى لوجود قلبين في جوف شخص واحد ، يستوى في ذلك الرجل والأنثى. علما بأن الادعاء بوجود قلبين ، انما كان مرتبطا بجوف الرجل ، لارتباط القوة به أكثر . وفى نفي القلبين عن الجانب القوى ، نفى ضمنى عن الجانب الآخر الذى يقلّ قوّة .

واذا كان الرفض من نصيب الادّعاء بأن الشخص يصح أن يكون له من الوجهة الحسية قلبان ، فان الموقف ذاته يكون من نصيب الادعاء بأنّ الشخص يصح أن يكون له من الوجهة المعنوية قلبان . لقد كان الرفض من الوجهة الحسية مبنيا على ائتلاف العملين للقلبين ، لأن في أحدهما الغناء عن الآخر ، فلا حاجة أساسا لعضو غير عامل . وان الشئ ذاته يقال عن ائتلاف العملين للقلبين معنويا ، وعن الاختلاف كذلك قياسا . انّ الإنسان لا يصح أن يكون عن طريق قلبه مريدا كارها ، عالما ظانّا ، شاكا موقنا في حال واحدة[1] ولا يجتمع في القلب الكفـــر والإيمـــان ، والهدى والضلال ، والانابة والإصرار . وهذا نفى لكل ماتوهمه أحد فى ذلك من حقيقة أو مجاز والله أعلم[2] الى غير ذلك من الصفات المتقابلة والأحوال التي لا يصح معها كون القلب متصفا بالشئ ونقيضه في آن واحد .

انّ الادّعاء بوجود قلبين في جوف شخص واحد يقومان معنويا في آن واحد بعملين مؤتلقين مرفوض أساســا . وهذا الرفض يقوم على كون أحد القلبين فيه الغنـــاء ، على نحو مامرّ بنا بشأن الغناء حسّيّا بأحد القلبين عن الآخر . وانّ الادّعاء بوجود قلبين يقومان معنويا بعملين متقابلين فى آن واحد مرفوض أساسا . لأن كل واحد منّا على علم تامّ بأنّ قلبه لا يمكن أن يكون في آن واحد محبّا مبغضــا

(١) البحر المحيط ٧/٢١١

(٢) تفسير القرطبي ص ٥١٩٩

لشيء واحد . إنّ هذا مستحيل . وبالتّالى يستحيل وجود شخص واحد له قلبان يعملان فى آن واحد . فكيف بالادّعاء بأنّ هذين القلبين عاملان ؟ وكيف بالادّعاء بأنّ هذين القلبين ذكيّان ؟ وكيف بالادعاء الأحمق من قبل ذلك المأفون المدّعى بأنّ كلّ واحد من قلبيه أذكى من قلب محمّد بن عبد الله ﷺ ، الإنسان الكامل ، خير خلق الله تعالى كلّهم ! الحقيقة أنّ العجب من هذا الادّعاء والتّطاول لا يكاد يقف عند حد . ونردّ على هذا المدّعى من نوع كيله قارئين فى حقه قوله تعالى[1] : « **فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصّدور** » وقوله تعالى **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾** .

ونحن إذا تجاوزنا هذا الادّعاء البسيط السّاذج ، والرّدّ عليه القريب الواضح ، إلى تدبُّر هذه الجزئية الكريمة : **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾** تبيّناً أنّا نستطيع أن نفهم منها معنى عميق الغور بعيد المغزى ، إضافة إلى جريان هذه الجزئية الكريمة مجرد المثل ، حينما يريد الواحد منّا مثلاً أن يعبر عن طاقته المحدودة على العمل وضعفه وقلة حيلته فيقول : **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾** وهذا المعنى العميق الغور البعيد المغزى ، يمكن أن ننتهى إليه حينما نتجاوز باستعمال الجزئية الكريمة فى هيئة المثل النّاحية الحسيّة إلى النّاحية المعنوية أو حينما يريد الشخص الحكيم أن يُبين للآخرين الطّريق الصّحيح الّذى ينبغى أن يسلكه القلب فى طريقه إلى الله تعالى . وتفسير ذلك أنّ ربّ العزّة إنّما خلق الخلق كى يعبدوه عزّ وجلّ وحده لا شريك له . وقد قال عزّ من قائل فى محكم كتابه[2] : **﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون ﴾** وحينما يتعمق المرء هذا الهدف من خلق الله تعالى له ، ويسعى جاهداً إلى جعل هذا الهدف حقيقة واقعة ، بتحويل الآمال إلى أعمال ، يقصد بها كلّها وجه ربّه الأعلى ، فإنّ قلب ذلك المؤمن المتّقى وقتها ، وقد امتلأ بحبّ الله تعالى وخشيته ، وحب المصطفى ﷺ ، لا يتسع لحبّ أىّ شيء آخر من أعراض الدّنيا الزّائلة ، وإن تكالب عليها البشر ، لأنّ النّور الّذى قذفه الله تعالى فى قلب ذلك المحبّ له ، المقبل عليه ، المؤتمر بأوامره ، المنتهى عن نواهيه ، الممتثل

---

(١) سورة الحجّ ٤٦ .

(٢) سورة الذّاريات ٥٦ .

لقضائه ﷻ قادر على أن ينفذ بنور بصيرته إلى جوهر الأشياء ولبّ القضايا . فلا يستطيع الزّيف والبهرج أن يضلل بصره كى يزيغ أو يطغى ، لأنّه فى الحقيقة لا ينظر بعين البصر الّذى تقف حدوده عند ظواهر الأشياء وقشورها ، وإنما ينظر بعين البصيرة الّتى قد نجد فى حياتنا لها قريب شبه فى الأشعة السينية القادرة على أن تلج إلى أعماق أجزاء الإنسان . وفرق بين الأشعة والبصيرة أنّ الأولى تتعامل مع شىء محسوس ، وأن الثّانية تتعامل مع شىء معنويّ . فإذا كانت الأشعة قادرة على أن تظهر الشىء الحسىّ غير القريب وغير الظّاهر على حقيقته ، فإنّ عين البصيرة أقدر منها فى مجال المعنويات ، عن طريق الوصول إلى أعماق المسائل وجواهر الأمور . لأنّ عين البصيرة هذه تستمد قدرتها من نور الله تعالى الّذى قذف به فى قلب المؤمن التقىّ الورع ، ذلك القلب الممتلىء بحبّ الله تعالى وخشيته إلى الحدّ الّذى يفيض معه ذلك الحبّ وتلك الخشية ، والّذى تتجلّى معه تلك القدرة العجيبة لعين البصيرة القادرة على النّفاذ إلى أبعد الأبعاد وأعمق الأعماق .

وهكذا يتبيّن درس جديد جليل الخطر فى هذه الجزئية الكريمة ، إضافة إلى الدّروس السّابقة . إنّ الإنسان له قلب واحد ، ولا يتسع هذا القلب لحبّ الدّنيا والآخرة فى آن واحد . والقرآن الكريم يخاطب خير خلق الله تعالى كلّهم[1] بالقول : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ وجاء فى سورة يوسف عليه السلام[2] قوله تعالى : ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون ﴾ . وجاء فى سورة النحل[3] قوله تعالى : ﴿ وقيل للّذين اتقوا ماذا أنزل ربّكم قالوا خيرا . للّذين أحسنوا فى هذه الدّنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتّقين . جنات عَدْن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون . كذلك يجزى الله المتّقين ﴾.

فهنيئا لمن امتلأ قلبه كلّه بحبّ الله تعالى وحبّ رسوله الكريم ﷺ حتى يصحّ فى حقه هذه المعانى الجميلة الجليلة التى يتضمنها هذا الحديث القدسى الشّريف[4] . عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله تعالى قال :

---

(١) سور الضّحى ٤ .
(٢) الآية ٥٧ .
(٣) الآية ٣٠ ، ٣١ .
(٤) الحديث الثّامن والثلاثون من متن الأربعين النّووية ص ١١٩ .

مَنْ عادى لى ولّياً فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ ممّا افترضته عليه . ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصربه ، ويده الّتى يبطش بها ، ورجله الّتى يمشى بها . ولئن سألنى لأعطينه . ولئن استعاذ بى لأعيذنه رواه البخارى . ويقول ابن القيم فى طريق الهجرتين وباب السّعادتين[1] والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه . فبقدر ما يدخل القلب من همّ وإرادة وحبّ يخرج منه همّ وإرادة وحبّ يقابله . فهو إناء واحد والأشربة متعددة . فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره . وإنّما يمتلىء الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خالياً . فأمّا إذا صادفه ممتلئا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثمّ يسكن موضعه ، كما قال بعضهم :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خالياً فتمكّنا »

ويقول أبو حيان[2] « وجه نظم هذه الآية بما قبلها أنّه تعالى لما أمر بالتّقوى كان من حقّها ألا يكون فى القلب تقوى غير الله . فإن المرء ليس له قلبان يتقى بأحدهما الله وبالآخر غيره . وهو لا يتقى غيره إلاّ بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره . ولا يليق ذلك بمن يتّقى الله حقّ تقاته » قال تعالى : **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾** .

القضية الثّانية الّتى يبيّن القرآن الكريم فيها وجه الحقّ قضيّة الظّهار ، الّتى كانت تعتبر قبل الإسلام طلاقاً ، وذلك بقول الرجل لزوجته مثلاً : أنت علىَّ كظهر أمى ، الذى يُفْهَم منه تنزيل الزّوج زوجته منزلة والدته . والقرآن الكريم يقول بصريح اللفظ : كما أنّ أىَّ رجل لا يصح أن يكون له قلبان اثنان ، كذلك الزّوجة لا تصير أمّاً بالظّهار . إنّ القول غير العمل . وإنّ الادّعاء غير الواقع . إنّ الزّوجة لها حقوقها وعليها واجباتها . ويوجد بإرادة الله تعالى بين الزّوجين مودّة ورحمة وسكينة . وإنّ كلاً من الزّوجين بمثابة اللّباس للآخر ، يصونه عن كلّ ما يؤذيه ماديّاً ومعنويّاً ، كما يصون اللّباس الإنسان من أذى الحرّ صيفاً والقُرّ شتاءً . وإنّ الوالدة لها حقوقها . وما أكثر الواجبات التى نيطت بها بدافع الأمومة والفطرة . لذا كان لها دون

---

(١) ص ١٩ .

(٢) البحر المحيط ٢١١/٧ .

سائر النّاس فى القرآن الكريم منزلة خاصّة فى نظر أبنائها . إذ لم يوص القرآن الكريم . وكذلك سنّة المصطفى ﷺ الابن بمخلوق كما أوصى بالوالدين ، وبخاصّة الوالدة . حتى إنّ من العلماء من استنتج من وصيّة المصطفى ﷺ بالوالدة على جهة الخصوص بأنّ حظّها من البرّ لا ينبغى أن يقلّ عن ثلاثة أرباع مجموع برّ الوالدين معاً .

وليس بخاف أنّ طبيعة العلاقة بين الابن ووالدته من واد آخر غير الوادى الّذى تتجلّى فيه العلاقة بين الزّوجين . فكيف تتحوّل الزّوجة بمجرّد القول إلى والدة ؟ إنّ هذا ادّعاء ليس له رصيد من الحقيقة . وقد بيّن القرآن الكريم وجه الحقّ فى هذه المسألة وحدّد أبعادها . فإذا كان الجاهليون يعتبرون ذلك طلاقاً فإنّ الإسلام الحنيف اعتبره ظهاراً يستحق مرتكبه عقوبة أليمة تكافىء تطاوله على مقام الأمومة وجرأته على تنزيله زوجته منزلة والدته . وهذه هى الآيات الكريمات من سورة المجادلة الّتى تبين كل ذلك قال تعالى[1] : ﴿ **قد سمع الله قول الّتى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إنّ الله سميعٌ بصير . الّذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهنّ أمّهاتهم إن أمّهاتهم إلاّ اللاّئى ولدنهم وإنّهم ليقولون منكراً من القول وزورا وإنّ الله لعفوٌّ غفور . والّذين يظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا. ذلكم توعظون به. والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا . فَمَنْ لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾.

فهذا أوس بن الصّامت يظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة بعد شجار بينهما ويقول مخاطبا لها : أنت علىّ كظهر أمّى[2] وتذهب المرأة إلى المصطفى ﷺ شاكية سوء حالها وحال أطفالها الّذين إن ضمهم الأب إليه ضاعوا أو إليها جاعوا . وقد ردّ عليها المصطفى ﷺ : ما أراك إلاّ قد حرمت عليه . وإذا كانت عائشة رضى الله عنها ، وهى فى ذات المنزل . قد غاب عنها بعض ما سال بين شفتى الأمّ الرّءوم من

---

(١) سورة المجادلة ١ – ٤ .

(٢) انظر هنا السّايس تفسير آيات الأحكام بشأن هذه الآيات من سورة المجادلة ٤/١١٠ فما بعدها .

خوف وإشفاق على أطفالها بسبب مظاهرة زوجها لها ، فإنّ رب العزّة الّذى لا تختلط عليه الأصوات ، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السّماء ، قد سمع قول الّتى تجادل المصطفى ﷺ فى زوجها وتشتكى إليه ، وسمع من فوق سبع سماوات تحاورهما فأنزل عزّ وجلّ فى هذه القضيّة الخطيرة قرآنا يُتْلى وضع حداً لذلك القول العابث والادّعاء غير المسئول وعين الجزاء الرّادع لكلّ من سوّلت له نفسه وتسوّل ارتكاب هذه الحماقة .

وإنّ الصّيغة الشائعة للظّهار ، توحى باستبشاع العرب معاني ما يقولون ، ولكنّها الحميّة الجاهليّة . إنّ الرّجل المظاهر لا يخفى عليه أنّه بقوله ذلك يحرم زوجته كما تحرم عليه أمّه . فلننظر إلى أهمّ مظهر لهذا الاستبشاع حينما وضعوا لفظة الظهر الّتى فرّوا إليها بدلاً من لفظ البطن المرتبط به الفرج . فلم يقولوا أنت علىّ كبطن أمّى أو ما شاكل ذلك ، ولكن قالوا : أنت علىّ كظهر أمّى ، أى أنت حرام علىّ وطؤك ومباشرتك كما تحرم علىّ والدتى[1] .

والظّهار مأخوذ من اللّفظ ذاته (أى لفظ الظّهر) ونحوه فى العبارة عن اللّفظ لبّى المحرم إذا قال لبّيك . وأفّف الرّجل إذا قال أفّ . وأخوات لهنّ[2] ونحن نودّ أن نتبين السّبب فى تعدّى الفعل بمن فى كل من سورة الأحزاب وسورة المجادلة : ﴿ **وما جعل أزواجكم اللاّئى تظاهرون منهن أمّهاتكم** ﴾ ﴿ **الّذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهنّ أمّهاتهم** ﴾ يقول الزمخشرى[3] : فإن قلت : فما وجه تعديته وأخواته بمن قلت : كان الظّهار طلاقاً عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها كما يتجنبون المطلّقة . فكان قولهم تظاهر منها تباعد منها بجهة الظهار .. ونظيره آلى من امرأته ، لمّا ضمن معنى التّباعد منها عدى بمن ، وإلاّ فآلى فى أصله الّذى هو بمعنى حلف وأقسم ليس هذا بحكمه »

وهكذا يبيّن القرآن الكريم فى هذه القضيّة وجه الحقّ وعين الصواب . وبذلك تمضى عادة عرب الجاهليّة بشأن الظّهار أدراج الرّياح وتتحوّل هباءً منثورا . وقد كان

---

(١) انظر الكشّاف ٥٢٩/٢ والبحر والميط ٢١١/٧ .

(٢) الكشّاف ٥٢٩/٢ .

(٣) الكشّاف ٥٢٩/٢ وانظر البحر المحيط ٢١١/٧ .

حظّ منهج القرآن الكريم تربوياً من النّجاح فى هذه القضيّة الثّانية ، نفس حظه من النجاح بشأن القضية الأولى السّابقة . وإن الشيء ذاته يقال عن القضيّة التّالية الثّالثة الّتى سنتحوّل إليها بإذن الله تعالى .

فإذا تحوّلنا إلى القضيّة الثّالثة والأخيرة فى الآية الكريمة : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** ﴾ تبيّنا أنّها تمثل أهمّ القضايا الثّلاث ومحور الآية الكريمة هذه والآية الكريمة التالية كذلك . فالقضية الأولى : ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه**﴾ واضح وجه الحقّ القريب فيها . والقضية الثّانية : ﴿ **وما جعل أزواجكم اللاّئى تظاهرون منهن أمّهاتكم** ﴾ عولجتْ بشيء من التفصيل كما مر بنا من قبل فى سورة المجادلة . أمّا قضيّة التّبنى وتنزيل الابن المدّعى منزلة الابن الحقيقى ، فإنّ سورة الأحزاب هذه ، هى الّتى عالجتها وقضت عليها من أصولها واقتلعتها من جذورها ، ليس من الوجهة النظرية فحسب ، بحيث إنّ ما يوافق هذه القاعدة مستقبلا ، يعالج وفقها ، بل من الوجهة العمليّة . فإذا كان الإسلام يحرّم على الأب أن يتزوّج زوجة ابنه من صُلْبه ، وكان الجاهليّون ينزّلون الابن الدّعى منزلة الابن الشرعىّ فى هذا الحكم ، فإنّ القرآن الكريم يجيء فيه فى هذه السّورة بشأن زيد بن حارثة ، الّذى كان يُدْعى أوّلاً زيد بن محمد ، وزوجته زينب بنت جحش قوله تعالى : ﴿ **فلمّا قضى زيدٌ منها وطرا زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا** ﴾.

وإنّا لنستطيع أن نقول ، إنّ هذه القضية الثّالثة ، تعتبر فى هذه الآية الكريمة ، قضية كبيرة ، من أجل أنّها يوطّأ لمعالجتها بمعالجة قضيّتين تشتركان معها فى نظرة العرب المخطئة تجاههما . بل إنها لتعتبر كذلك لأنها إحدى القضايا الكبرى الّتى تعالجها السورة الكريمة ، ممّا يُعْتَبَرُ دليلاً على تغلغل هذه العادة السّيّئة فى أحشاء المجتمع العربىّ . لذا احتاجت معالجتها إلى العديد من الأسباب والوسائل . فنحن بصدد حث أمّة الإسلام على التقوى ، وتبيين وجه الصواب فى قضيّتين موطئتين لهذه القضية الثّالثة . وهما قضيّتان بسيطتان بالقياس إلى الثّالثة ، لأنّ وجه الصواب بشأن الأولى قريب التناول . ولأنّه بشأنه الثّانية ليس بعيدا . ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ إنّما تجاوزه إلى كون المحطّم لهذه الفرية بارادة الله تعالى ، هو شخص الرّسول

الكريم نفسه ، الأسوة الحسنة ، على الرّغم ممّا سبّب ذلك له ﷺ من حرج وجرّ عليه من إيذاء ، من قبل المنافقين واليهود على جهة الخصوص ، وقد أشير إلى كلّ ذلك بصريح اللفظ فى السورة الكريمة .

وبهذا التّدرج نحو الأهمّ ، فى عرض القضايا الثّلاث ، يتبيّن مظهر من مظاهر منهج القرآن الكريم التّربوىّ ، الّذى يؤتى دائماً وأبدا أكله . فبعد توضيح القرآن الكريم لحقائق الأشياء ، وطرد كلّ زيف وبهرج ، لم نَسْمع عمَّنْ جرؤ عل أن يزعم أنّ له مجرّد قلبين ، فضلا عن كونه يعقل بكلّ واحد منهما أفضل من عقل محمّد ﷺ . ولم نسمع بعد ذلك عمّن جرؤ على تنزيل الظهار منزلة الطّلاق . وقد بين القرآن الكريم كفّارة الظّهار وحقيقته . ولم نسمع بعد ذلك عمَّنْ جرؤ على أن يزعم بأنّ لدعيّه منزلة ابنه الحقيقى ، وبالتالى فإنّ زوجة هذا الدّعى بعد الانفصال ، محرَّمة عليه كزوجة ابنه . إن الإسلام قضى على تلك العادة الجاهلية إذ البنوّة تقتضى التّأصّل فى النسب ، والدّعوة إلصاق عارض بالتّسمية ، فلا يجمع فى الشىء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل[1] »

ويردف القرآن الكريم النّفى المؤكّد المصدر كلّ مرّة من المرّات الثّلاث بجملة جعل ، بتبيين الأساس الزّائف الّذى بُنى عليه كلّ من الادّعاءات الثّلاثة . إنّ المسألة لا تتجاوز قول لسان يسيل بين شفتين . أمّا أنّ هناك أساساً صحيحاً سليما يعتمد عليه ويستند إليه فلا . وبما أنّ هذا القول ، ليس له أساس صحيح ، فهو قول غير صحيح . وقد بيّن القرآن الكريم ذلك بالقول : ﴿ **ذلك قولكم بأفواهكم** ﴾ وليس بخاف أنّا بصدد أسلوب الخطاب الغالب على أكثر أجزاء الآية الكريمة ، والّذى يُعْتَبَرُ أقوى الأساليب فى مثل هذه الحال . يقول أبو حيّان[2] : « ذلكم أى دعاؤهم أبناء ، مجرّد قول لا حقيقة لمدلوله . إذلا يواطىء اللّفظ الاعتقاد ، إذ يعلم حقيقة أنّه ليس ابنه . والله يقول الحق ، أى ما يوافق ظاهرا أو باطنا » ويقول ابن كثير[3] « ذلكم قولكم بأفواهكم ، يعنى تبنّيكم لهم ، قول لا يقتضى أن يكون

---

(١) البحر المحيط ٢١٢/٧ .

(٢) البحر المحيط ٢١٢/٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٦٦/٣ .

ابنا حقيقيّا ، فإنّه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

وبما أن كلاً من القول والأساس الّذى قام عليه القول خاطئان ، فالقرآن الكريم يبين صواب القول والعمل بشأن كل من هذه القضايا الثّلاث ، وبخاصّة القضيّة الثّالثة . الّتى أفاض فى الحديث عنها مرّة بعد مرّة . أمّا الادّعاء بأنّ ثمّة قلبين فى جوف شخص واحد ، فالقرآن الكريم يقضى عليه بالكلية ، بمجرد النّفي القوى لهذه الفرْية : « **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** » . وأمّا الادعاء بأنّ الزّوجة تتحوّل أمّا ، لمجرد كلام يندفع دون ضابط بين شفتى شخص استبد به الغيظ والغضب ، فهو لا يكاد يعى ممّا يقول شيئاً ، فإنه ادعاء باطل . إنّ الزوجة تظل زوجة دائماً وينطبق فى حقّها هى وزوجها قوله تعالى فى سورة الرّوم[1] : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكّرون** ﴾ وأمّا الوالدة فإنّها هى دائماً وأبداً الّتى جعل الإسلام الجنّة تحت أقدامها ، جاء عن الوالدين ، والوالدة بخاصّة فى سورة لقمان قوله تعالى[2] ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهْناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما وصاحبهما فى الدّنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ وجاء فى سورة الأحقاف قوله تعالى[3] : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمّه كرها ووضعته كُرها وحَمْله وفصاله ثلاثون شهرا** ﴾ وإنّ ربّ العزّة يقول الحقّ ، أى العدل ، فى هذه القضايا . وبذلك يتضح الصراط المستقيم الذى ينبغى أن يسير فيه المؤمنون ، كى يحظوا بصفة التّقوى . وقال قتادة : وهو يهدى السَّبيل ، أى الصراط المستقيم[4] .

وفى إمكاننا أن نتدبّر القول فى الآية الكريمة : **والله يقول الحقّ** الذى ينزل منزلة المثل . فالله تعالى يقول الحقّ . فالقضايا الثلاث التى نحن بصددها تتدرج فى قول

---

(١) الآية ٢١ .

(٢) الآية ١٤ ، ١٥ .

(٣) الآية ١٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٦٦/٣ .

الحق ذلك . كما أنّ فى إمكاننا أن نتدبر القول فى الآية الكريمة : ﴿ **وهو يهدى السَّبيل** ﴾ الذى يصح فى حقّه القول السّابق . فالله تعالى وحده لا شريك له ، هو الذى يهدى دائماً وأبداً إلى سبيل الحق وإلى الصراط السوى والطّريق المستقيم . ويندرج فى هذا السبيل الذى هدى الله تعالى إليه العباد ، ترجمتهم إلى عمل تلك الإرشادات القرآنية . فالقلب الواحد الذى ليس للإنسان سواه ، ينبغى أن يمتلىء بخشية الله . ومن تورّط فى الظهار عليه الكفّارة . وعلى كل أب ألاّ ينسب إليه إلا ابنه . وعلى كلّ ابن ألاّ ينتسب إلاّ لأبيه . هذا هو قول الله وقوله الحقّ . وهذا هو سبيله وسبيله الصراط المستقيم . يقول القرطبى[1] : ويظهر من الآية بجملتها نفى أشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت ، وإعلام بحقيقة الأمر . والله أعلم » قال تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . وما جعل أزواجكم اللاّئى تظاهرون منهن أمّهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾ .

بينت الآية الكريمة السّابقة وجه الحقّ بشأن القضايا الثّلاث التى اعتاد العرب قبل الإسلام وفى فجره أن يكون لهم موقف معيّن منها ، وبخاصّة القضيتان الثّانية والثّالثة . وهاهى ذى الآية الكريمة التّالية تخص بالذّكر آخر القضايا الثلاث وأهمّها وهى قضية التبنى قال تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم ، وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ يقول الزمخشرى بشأن نظم الآية الكريمة بيانياً[2] » وفى فصل هذه الجمل ووصلها من الحسن والفصاحة مالا يغبى على عالم بطرق النظم» ونحن نود من جانبنا أن نفصل ما أجمله الزمخشرى . وأقرب الأمور تناولاً بشأن هذه الغاية هو أن الآية الكريمة تنقسم إلى أربعة أقسام . وكل قسم يشتمل على معنيين اثنين . فالقسم الأوّل أو الجزئية الأولى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ يتكوّن من معنيين ، دعوة الأبناء لآبائهم ، وتبيين أنّ هذه الدّعوة أعدل عند الله تعالى ، وأصدق وأبر ، وأصوب وأولى . قال قتادة :

---

(١) تفسير القرطبى ٥١٩٩ .

(٢) الكشّاف ٢/٥٣٠ .

ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، أى أعدل عند الله[1] والقسم الثانى يعالج أقرب العقبات المحتملة التى تحول بين المسلمين وبين ما يحرصون عليه من امتثال لأمر الله تعالى ، وهو كونهم لا يعلمون آباء الأدعياء . وهذا هو المعنى الأوّل . ويضع الإسلام توّا العلاج . فمن لم يعرف أبوه وكان حرّاً أساساً فهو أخ . ومن لم يكن حرّاً أساساً فهو مولى . يقول الطبرى[2] يقول تعالى ذكره : فإن أنتم أيُّها النّاس لم تعلموا آباء ادعيائكم من هم فتنسبوهم إليهم ولم تعرفوهم فتلحقوهم بهم فإخوانكم فى الدّين يقول : فهم إخوانكم فى الدّين إن كانوا من أهل ملّتكم . ومواليكم إن كانوا محرّريكم وليسوا ببنيكم ويقول الزمخشرى[3] : « فقولوا : هذا أخى وهذا مولاى . ويا أخى ويا مولاى . يريد : الأخوة فى الدّين والولاية فيه » .

وعلى الرغم من اتّضاح الطريق الصحيح الذى أرشد إليه القرآن الكريم ويسير فيه المؤمنون حينما تتبين لهم كلّ الأمور ، فإن ثمّة من يتورط فى الخطأ رغم اجتهاده ألاّ يقع فيه . كما أنّ ثمّة من يرتكب الخطأ عمداً . وليس لهاتين الحالتين اللتين جانبتا الصواب ثالثة وهنا نتبين أنّ القسم الثانى فى الآية الكريمة يشير على التّوالى إلى هاتين الحالتين . قال تعالى : ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن مّا تعمدت قلوبكم** ﴾ وتختم الآية الكريمة بالتذييل الذى يشير إلى اسمين مِنْ أسمائه الحسنى جل وعلا وهما الغفور الرّحيم . والمغفرة تشمل من تاب من قيامه بعمل من الأعمال التى كان يقوم بها العرب حتى فجر الإسلام ، وقبل أن يتضح له رأى الإسلام فى تلك الأمور . كما تشمل من أخطأ ثم تاب ، ومن تعمد ارتكاب الخطأ ثم تاب كذلك وآمن وعمل عملا صالحاً . وأمّا الرّحمة فإنّها معمقة للمغفرة التى تكون لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحا . فهى صفة قائمة على المغفرة ، كما أنّها خاصّة بالمؤمنين . فقد قال تعالى فى هذه السوّرة الكريمة[4] ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ وهذه هى الآية الكريمة بأقسامها الأربعة . قال تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم . وليس**

---

(١) تفسير الطّبرى ٧٦/٢١ .
(٢) تفسير الطّبرى ٧٦/٢١ .
(٣) الكشّاف ٥٣٠/٢ .
(٤) الآية ٤٣ .

عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾. وإنّ كلاً من أقسام الآية الكريمة الأربعة ، بحاجة منّا إلى إعادة نظر وإدامة تأمّل وتدبُّر .

إن الجزئية الكريمة الأولى : **﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾** تبدأ من أوضح النقاط وأقوى الجوانب ، وذلك حينما يكون والدو الأعياد معروفين . والأدعياء جمع الدّعى . وهو الذى يُدَّعَى ابنا لغير أبيه . أو يَدَّعى غير أبيه[1] إنّ هؤلاء الآباء معروفون . فلماذا يتجاوز الأب الحقيقى إلى شخص أجنبى ، كى يحلّ محلّ الأب الحقيقى ، ويحرمه بالتّالى حقاً له ؟ إنّ القرآن الكريم يأمر بصريح اللفظ أن يدعى كلّ ابن إلى أبيه مادام معروفا ، لأن فى التبنّى الكثير من الحيف والمخاطر . إذن فَلْيقض على كل ظلم وخطر ارتبط أساساً بالتبنّى ، وليُبْقَ على منافعه التى ستحقق آليا ، حينما ينتسب الابن لأبيه ، وبذلك يتم الجمع بين كل أنواع البرّ والإحسان من ناحية الأب والابن والمتبنى . أما حينما يجهل الأب فإنّ المتبنَّى يتحقق له الأخوّة فى الإسلام والموالاة .

وفى إمكاننا أن نتمثل بعض مظاهر الحيف التى تلحق بالأب الحقيقى وبالابن ذاته ، حينما يقطع كلّ ما بينه وبين والده وأسرته من وشائج وعلاقات . وبالجماعة الإسلامية التى يحل فيها الدّعى منزلة الابن الحقيقى ، فيطلع على الحرمات ، ويرث كالابن الحقيقى وهكذا . لقد كان الرّجل فى الجاهليّة إذا أعجبه جلد الرّجل وظرفه ضمّه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذّكر من أولاده من ميراثه وكان ينسب إليه فيقال : فلان بن فلان[2] جاء فى صحيح البخارى[3] عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنّ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ :ما كنّا ندعوه إلاّ زيد بن محمّد حتى نزل القرآن :**﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾** وفى قول ابن عمر : ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلاّ زيد بن محمّد دليلٌ على أنّ التبنى كان معمولاً به فى الجاهلية والإسلام ، يتوارث به ويتناصر ، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله :**﴿ ادعوهم لآبائهم**

---

(١) تفسير القرطبى ٥٢٠٣ .

(٢) الكشّاف ٢/٥٣٠ وانظر تفسير القرطبى ٥٢٠١ .

(٣) ١٤٥/٦ .

هو أقسط عند الله ﴾ أى أعدل . فرفع الله حكم التبنى ومنع مِنْ إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله ، إلى أنّ الأولى والأعدل ، أن يُنْسب الرّجل إلى أبيه نسبا[1] وإذا كان الحيف الذى يلحق بكلٍّ من الأب والابن بسبب الادّعاء واضحا وقريب التناول ، فإنا نود من هذا النصّ المقتبس الذى يُفْهَمُ منه استياء أبى حذيفة رضى الله عنه من خلوة دعيه ومتبناه سالم رضى الله عنه ، بزوجه رضى الله تعالى عنها ، أن نتبين بعض الأخطار الّتى تلحق بالأسرة المسلمة وبالجماعة المسلمة بسبب التبنى . يقول ابن كثير[2] : وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك . ولهذا قالت سهلة بنت سهيل ، امرأة أبى حذيفة رضى الله عنهما : يا رسول الله إنّا كنّا ندعو سالما ابنا . وإنّ الله قد أنزل ما أنزل . وإنّه كان يدخل علىّ وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : أرضعيه تحرمى عليه[3] الحديث . ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعى . وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه . وقال عزّ وجل : **﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾** وقال تعالى فى آية التحريم : **﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾** ، احترازا عن زوجة الدعى ، فإنّه ليس من الصلب . فأمّا الابن من الرّضاعة فمنزل منزلة ابن الصُّلب شَرْعا بقوله ﷺ فى الصّحيحين : يحرم من الرّضاعة ما يحرم من النّسب هذا هو حكم الله تعالى فى هذه القضية وهو أحكم الحاكمين ، وهذا هو قوله، وقوله جلّ وعلا هو الحقّ والصّدق والعدل . قال تعالى : **﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾** .

وإنّ المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة ، وهاهو ذا زيد بن حارثة يُدْعى لأبيه فيقال زيد بن حارثة ، بعد أن كان يُدْعى زيد بن محمّد . والقرآن الكريم فى هذه السّورة الكريمة قد أكد هذا المعنى فى قوله تعالى : **﴿ ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليماً ﴾** وقد امتثل الصّحابة

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٠١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٦ .

(٣) المراد أن ترضعه خمس رضعات بواسطة إناء تجمع فيه لبنها . انظر هنا مثلا رضاع الكبير فى فقه السنّة ٢/٧٠ .

رضوان الله تعالى عليهم لأوامره جلّ وعلا . ومن الأمثلة على ذلك المقداد بن عمرو ، الذى غلب عليه نسب التبنى ، فلا يكاد يعرف إلاّ بالمقداد بن الأسود . فإنّ الأسود بن عبد يغوث كان قد تبناه فى الجاهلية وعُرف به ، فلمّا نزلت الآية قال المقداد : أنا ابن عمرو[1] .

إنّ هذا هو العمل حينما يعرف والد الدّعى . فما العمل حينما لا يُعْرَف أبوه ، ومعروف أنّ حياة العرب قبل الإسلام كانت حياة سلب ونهب ، كما حدث بشأن زيد بن حارثة نفسه ، ويكون السَّبِىّ[2] صغيراً وبالتّالى لا يعرف من أمر والده وأهله شيء ؟ هنا يبين القرآن الكريم العمل بشأن هذه الحال . قال تعالى : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم** ﴾ إنّ الإسلام الحنيف لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها . ولابن القيم تفسير لطيف لمعنى الوسع الّذى جاء فى القرآن الكريم ، مقارنا بينه وبين الطّاقة . يقول رحمه الله تعالى[3] : إنّه سبحانه لم يكلّف عباده إلاّ وسعهم ، وهو دون طاقتهم . فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم بخلاف وسعهم ، فإنّه ما يسعونه ، ويسهل عليهم ، ويفضل قدرهم عنه ، كما هو الواقع . وإنّه سبحانه لا يعاقب أحداً بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره . ولا يعاقبه بترك مالا يقدر علي فعله ، ولا على فعل مالا قدرة له على تركه » فعلى كل مسلم فى مثل هذا الحال ، أن يستفرغ جهده فى سبيل معرفة والد المتبنى ، فإذا عجز عن الوصول إلى تلك المعرفة ، فليعلم أنّ الله تعالى لا يكلّف نفساً إلاّ ما آتاها ، ولا يكلّف نفساً إلاّ وسعها . وقد جاء فى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإن اجتهد فأخطأ فله أجر** » . وفى الحديث الآخر : « **إنّ الله تعالى رفع عن أمّتى الخطأ والنّسيان والأمر الّذى يكرهون عليه** »[4] والمراد بالأجرين أجر الاجتهاد وأجر الإصابة . والمراد بالأجر فى حال الخطأ هو أجر الاجتهاد . وإنّ العمل بشأن التبنى والعجز عن معرفة الأب الحقيقى بعد الاجتهاد يجيء فى قوله تعالى :

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٢ .

(٢) السّبى بالسّين المفتوحة وكسر الباء وتشديد الياء (قاموس) .

(٣) طريق الهجرتين وباب السّعادتين ص ١٦١ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٦٧/٣ .

﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ وسبق أن استأنسنا فى نظرتنا الأولى للجزئية الكريمة برأى الطّبرى فى تفسيره[1] الّذى يربط من ناحية بين الحرية أساساً وبين الأخوّة فى الدّين . ويربط من ناحية أخرى بين المحررين أساساً وبين لفظة الموالى فى القول : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ كما استأنسنا برأى الزمخشرى[2] الذى يرى أنّ المراد الأخوّة فى الدين والولاية فيه .

ونحن حينما ننظر إلى بعض المعانى الكثيرة المرتبطة بلفظة المولى ، نستطيع أن نفهم من القول : « **ومواليكم** » معنى آخر يضاف إلى الأخوّة فى الدّين ، بمعنى الصحبة فى الدين والنّاصر والمحبّ ، وما إلى ذلك . وبهذا تجمع الجزئية الكريمة بين الدين والدّنيا ، مقدّمة الأهم وهو المصالح الدّينيّة . ونحن نتبين فى القول : ﴿ **فإخوانكم فى الدّين** ﴾ بالإضافة إلى تحقيق أهمّ الغايات ، وهى الأخوة الدّينيّة ، نتبين فى هذا القول الّذى يختار الأخوّة دون غيرها من الألفاظ ، أنه يلبى أهمَّ رغبة لدى الذى كان دعيا قطع نسبة بمن تبنّاه ، وسبق له أن قطع نسبه بأبيه . إنّه الآن أحوج ما يكون إلى الأخوّة الدّينية التى يَرْتبط بها عادة التّشابه أو التقارب فى العمر . ومعروف جيّداً أنّ كلّ إنسان أميل لمن هم فى مثْل سنه . وهاهو ذا الذى كان دعياً ، يجد عضده قد اشتد ، ليس بأخ واحد فى النّسب قد يتخلّى عنه ، ولكن بعدد لا نهاية له من الإخوة الذين تربطهم رابطة أقوى من رابطة النّسب وهى رابطة الدّين . فإذا جُمع له إلى رابطة الدّين رابطة الدّنيا الصالحة تحقق له غاية المنى . وها هو ذا أبو بكرة رضى الله تعالى عنه يُعْتَبَرُ خير شاهد على ما نقول من كون الأخوّة فى الدّين والموالاة قد عوّضته فى الحقيقة أضعاف ما كان لديه دون وجه حقّ ومن ثمّ أخذ منه . إنّ أبا بكرة رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية الكريمة : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم . وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيماً** ﴾ ثم قال : أنا مَمّن لا يُعْرَف أبوه ، فأنا أخوكم فى الدّين ومولاكم[3]

---

(١) ٧٦/٢١ .
(٢) الكشّاف ٥٣٠/٢ .
(٣) أنظر تفسير الطّبرى ٧٦/٢١ والبحر المحيط ٢١٢/٧ .

وإليك هذا النَصّ الذى يتضمن الكثير من الأحكام ، من أهمها ابتداؤه ﷺ بنفسه فى مسألة التبنى وإرضاؤه متبناه زيد بن حارثة بقوله : أنت أخونا ومولانا ، بعد أن كان يُدْعى زيد بن محمّد . يقول ابن كثير[1] ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضى الله عنهما تنادى : يا عمّ ، يا عمّ : فأخذها على رضى الله عنه وقال لفاطمة رضى الله عنها : دونك ابنة عمّك . فاحتملتها فاختصم فيها على وزيد وجعفر رضى الله عنهم فى أيُّهم يكفلها . فكل أدْلى بحجة . فقال على رضى الله عنه : أنا أحقّ بها وهي ابنة عمّى . وقال زيد : ابنة أخى . وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمّى وخالتها تحتى ، يعنى أسماء بنت عميس . فقضى بها النبى ﷺ لخالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم . وقال لعلى رضى الله عنه : أنت منى وأنا منك . وقال لجعفر رضى الله عنه : أشبهت خلقى وخلقى . وقال لزيد رضى الله عنه : أنت أخونا ومولانا . ففى هذا الحديث أحكام كثيرة ، مِنْ أحسنها أنّه ﷺ حكم بالحقّ ، وأرضى كلاً من المتنازعين وقال لزيد رضى الله عنه : أنت أخونا ومولانا كما قال تعالى : ﴿ **فإخوانكم فى الدّين ومواليكم** ﴾ .

روى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكر ، كلاهما قال : سَمِعَتْه أذناى ووعاه قلبى محمّداً[2] ﷺ يقول : من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنّه غير أبيه فالجنة عليه حرام . وفى حديث أبى ذر أنّه سمع النبى ﷺ يقول : ليس مِنْ رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلمه إلاّ كفر[3] .

وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنى وهو من نسخ السنة بالقرآن . فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف . فإن لم يكن له أبٌ معروف نسبوه إلى ولائه . فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخى ، يعنى فى الدّين . قال الله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[4] .

وبطبيعة الحال . لا يثبت عدم العلم بوالد الدّعى إلاّ بعد بذل غاية الجدّ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٦ .
(٢) بدل من ضمير سَمِعَتْه .
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٣ .
(٤) تفسير القرطبى ص ٥٢٠١ .

والاجتهاد فى سبيل الوصول إلى العلم . كى تتم دعوة الدّعى لأبيه . وهكذا يتبين أنّه فى حالة نجاح الاجتهاد فى ذلك ، وهو الأمر المأمول والمرغوب فيه ، نكون أمام المرحلة المفضلة ، الّتى أشارت إلى تفضيلها الجزئية الأولى فى الآية الكريمة : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ وفى حالة عدم النجاح ، رغم الاجتهاد ينزل الدّعى منزلة الأخ فى الدّين والمولى ، وهى مرحلة يتمّ إليها التحول ضرورة . لذا أشارت إليها بعد ذلك الجزئية الكريمة الثّانية : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم** ﴾ فالمطلوب الاجتهاد فى البحث والتحرى وصدق النية والإخلاص ، انطلاقا من الإيمان المطلق بكون ذلك هو حكم الله تعالى . أمّا إذا كان ثمّة تهاون فى البحث والتحرى فذلك دليل على عدم كمال الإيمان والتقوى ، ودليل على كون القلب ميدانا لشيء من النفاق ، مقياسه مدى التهاون والتقصير فى البحث والتحرى . وإنّ الدّاهية أكبر ، حينما تتعمد بعض القلوب المريضة التهاون فى حكم الله تعالى . فهى لا تقف عند مجرّد التهاون فى البحث والتحرى ، إنّما تتجاوز ذلك إلى كونها تتعمد إغفال حكم الله تعالى ، فهى لا تبحث عن الحقيقة أصلا . أو هى لا تأبه بالحقيقة مطلقا وإن كانت قريبة التناول . وحينما يتبين لها وجه الحقّ مثلاً هى لا تأبه له . ومن ثمّ هى بسبب عدم تمكّن الإيمان من القلوب ، تصرّ على إلحاق الدّعى بمن تبناه . متجاوزة والده الحقيقى . وإلى هذه الأمور المتعدّدة أشارت الجزئية الكريمة الثّالثة فى الآية . قال تعالى : ﴿ **وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم** ﴾ .

لقد عرفنا سابقا من الحديث النبوى الشريف ، الأجرين اللذين هما من نصيب المجتهد المصيب ، والأجر الواحد الذى هو من نصيب المجتهد المخطىء . وإنّ هذه الجزئية الكريمة ، لتنظر إلى الأمر من وجهه الآخر . فإذا كان الحديث النبوى الشريف يشير إلى الثواب والأجر ، فإن الآية الكريمة تشير إلى نفى الذّنب والوزر . وكأنّ الحديث النبوى الشريف يبين ما أجملت الآية الكريمة ، ويوضّح ما به أوحت . فليس على المؤمنين شيء من الإثم والذّنب ، فيما لو أخطأوا بعد الاجتهاد . وإن ربّ العزّة فى محكم كتابه ليلقن المسلمين الدّعاء الّذى به يتضرعون له جل وعلا ، فيما لو تورطوا فى خطأ ، من أهمّ متعلقاته أنهم تحروا الصواب ولم يقصدو الخطأ . أى

حينما يكونون مخطئين لا خاطئين . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلاّ وُسْعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصْرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربّنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصُرْنا على القوم الكافرين** ﴾ . ويقول الطبرى[2] : وقوله : وكان الله غفوراً رحيماً . يقول الله تعالى ذكره : وكان الله ذا ستر على ذنب من ظاهر من زوجته فقال الباطل والزُّور من القول ، وذنب من ادّعى ولد غيره ابنا له ، إذا تابا وراجعا أمر الله، وانتهيا عن قيل الباطل ، بعد أن نهاهما ربُّهما عنه . ذا رحمة بهما أن يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما من خطيئتهما »

أمّا حينما يكون هناك تعمّدٌ لتجاهل حكم الله تعالى ، أو تعمّدٌ للحكم بغير ما أمر الله تعالى ، بألاّ يكون هنالك أساساً بحث عن الحقيقة، أو يكون هنالك تجاوز للحقيقة وقد اتضحت . فإنّ المتورّط فى شىء من ذلك ينطبق فى حقه قوله تعالى من سورةالمائدة[3] : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ وقال تعالى[4] : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ .

وبطبيعة الحال باب التوبة مفتوح على مصراعيه دائماً أمام كل مذنب . فمن تورّط فى عدم الدّقة فى البحث والتحرى ، ومن تعمّد أن يتجاوز حكم الله تعالى وأوامره إلى أوامر النفس الأمارة بالسّوء والشيطان الرّجيم ، عليه أن يتوب إلى الله تعالى حالاً توبة نصوحة . فالله تعالى هو الذى يقبل التّوبة عن عباده . قال تعالى[5] : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التّوبة عن عباده ويأخذ الصّدقات وأنّ الله هو**

---

(١) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٢) تفسير الطّبرى ٧٦/٢١ .
(٣) الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .
(٤) سورة المائدة ٥٠ .
(٥) سورة التوبة ١٠٤ .

التواب الرّحيم﴾ وقال تعالى[1] :﴿ إنّما التّوبة على الله للذين يعملون السّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليماً حكيماً . وليست التّوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار. أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ . فعلى من تورّط فى شيء من مثل ذلك أن يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحا . بأن يكف عن تماديه فى خطئه ، وأن يندم عليه . وأن يصلح من ذلك الخطأ بالعودة إلى صراط العزيز الحميد . ويلاحظ أننا بصدد صفتين لاسمين من أسمائه جلّ وعلا الحسنى ، المغفرة والرّحمة . وإنّ المغفرة لتذكرنا بقوله تعالى فى سورة آل عمران[2] : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ كما تذكرنا الرّحمة بقوله تعالى فى هذه السّورة الكريمة[3] :﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ وبالتالى فإن من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ، لا تقف رحمة الله تعالى به ، عند التجاوز عن ذنوبه ، وستر عيوبه فقط . بل إلى تبديل سيئاته حسنات . قال عزّ من قائل[4] :﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً. ومن تاب وعمل صالحاً فإنّه يتوب إلى الله متابا ﴾ ، وقال عزّ من قائل[5] : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جيمعاً إنّه هو الغفور الرّحيم﴾ وقال تعالى :﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم . وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾.

---

(١) سورة النساء ١٧ ، ١٨ .
(٢) الآية ١٣٥ .
(٣) الآية ٤٣ .
(٤) سورة الفرقان ٧٠ ، ٧١ .
(٥) سورة الزّمر ٥٣ .

(٣)

« النبى أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم »

الآيات ٦ ــ ٨

هذا القسم الثّالث يتكوّن من ثلاث آيات كريمات هي السّادسة والسّابعة والثّامنة . ونبدأ حديثنا بأولى الآيات الكريمات .

ابتدأت السّورة الكريمة بمخاطبة المصطفى ﷺ ، فى طريقة تشعر بعلوّ منزلته عند بارئه جلّ وعلا ، فقد خوطب عليه الصّلاة والسّلام بالقول : ﴿ **يا أيّها النبىّ** ﴾ وفيما يتّصل بالآية الكريمة الأولى فى القسم الثّالث ، السّادسة فى السّورة ، هى تشير إليه ﷺ ابتداءً ، فى الطّريقة ذاتها . قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمّهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ والآية الكريمة تتحدث عنه ﷺ من جهة منزلته الّتى ينبغى أن تتمكن من قلوب المؤمنين المتقين ، للدّرجة الّتى يحبونه ﷺ معها أكثر من حبهم لأنفسهم . ولا يحتل مخلوق هذه المنزلة من نفوس المؤمنين المتقين سوى الرّسول الكريم ، بحيث إنّا نحس معها من زاوية النّظر إلى جنس الرّجال فى مجال الودّ والبر والحبّ بأنّ منزلة الوالد التى لا تنافسها فى مجال البرّ منزلة رجل آخر ، لا يمكن أن تقاس بحال من الأحوال بمنزلته ﷺ . وإنّ منزلته عليه الصلاة والسلام عند بارئه ، بحيث إنها فى حقّ المؤمنين تجاوزت أنفسهم والوالدين لهم ، قد امتدت بركتها فشملت أزواجه ﷺ ، فنزّلهن ربّ العزّة منزلة الأمّهات . فى وجوب التعظيم ، والمبرة ، والإجلال ، وحرمة النكاح على الرّجال ، وحجبهن ، رضى الله تعالى عنهن ،

بخلاف الأمّهات[1] قال تعالى : ﴿ **النبىُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم** ﴾ . وإذا كانت منزلته ﷺ تتجاوز منزلة نفس الإنسان لديه ، وكانت منزلة أزواجه ﷺ تتجاوز كلّ المنازل حتى تصل إلى منزلة الأمّهات اللاّئى جعل الله تعالى الجنّة تحت أقدامهن ، فإنّ المعنى الثّالث فى الآية الكريمة ، تتبين معه منزلة أولى الأرحام فى مجال الميراث ، حيث قد تجاوزت بهم الآية الكريمة المنزلة المؤقتة السّابقة فى صدر الإسلام ، والّتى كان معها ، لرابطة الإيمان والهجرة ، ولرابطة الأخوّة فى الإسلام ، بين المهاجرين والأنصار ، ما ليس لغيرها من روابط النّسب ووشائج القربى فى مجال الميراث . فكان المؤمن المهاجر فى سبيل الله تعالى ، هو الذى يرث المؤمن المهاجر فقط ، دون من آمن ولم يهاجر ، على نحوما أشارت إلى ذلك سورة الأنفال[2] وكان الأخ فى الإسلام المهاجر ، هو الذى يرث أخاه الأنصارى دون أقاربه الذين يرتبط بهم عن طريق وشائج الدم . وهاهى ذى الآية الكريمة تمحو ما شاء الله تعالى من حكم مؤقت شاءت العناية الإلهية لحكمة ، وتمحو طريقة العرب قبل ذلك فى التوارث عن طريق الولاء والحلف ، على نحوما أشارت الآية الكريمة من سورة النساء قال تعالى[3] : ﴿ **ولكل جعلنا موالى ممّا ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . إن الله كان على كل شىء شهيدا** ﴾ . ويقول الطبرى[4] :« قال ابن زيد....كان النبى ﷺ قد آخى بين المهاجرين والأنصار أوّل ما كانت الهجرة . وكانوا يتوارثون على ذلك». وقال الله : ﴿ **ولكل جعلنا موالى ممّا ترك الوالدان والأقربون . والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾ . قال : إذا لم يأت رحم لهذا يحول دونهم . قال : فكان هذا أوّلاً فقال الله : إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . يقول : إلاّ أن توصوالهم . كان ذلك فى الكتاب مسطورا . إنّ أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . قال : وكان المؤمنون والمهاجرون لا يتوارثون إن كانوا أولى رحم حتى يهاجروا إلى المدينة . وقرأ . قال الله : **والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى**

---

(١) تفسير القرطبى ٥٢٠٥ .

(٢) الآية ٧٢ .

(٣) سورة النساء ٣٣ .

(٤) تفسير الطبرى ٧٧/٢١ وقد أكملنا آيتي سورة الأنفال

الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . فكانوا لا يتوارثون . حتى إذا كان عام الفتح ، انقطعت الهجرة وكثر الإسلام . وكان لا يقبل من أحد أن يكون على الّذى كان عليه النبى ومن معه إلاّ أن يهاجر . قال : وقال رسول الله ﷺ لمن بعث : اغدوا على اسم الله . لا تغلوا ولا تولّوا ادعوهم إلى الإسلام فإن أجابوكم فاقبلوا ، وادعوهم إلى الهجرة فإن هاجروا معكم فلهم ما لكم وعليهم ما عليكم . فإن أبوا ولم يهاجروا واختاروا دارهم فأقروهم فيها فهم كالأعراب ، تجرى عليهم أحكام الإسلام. وليس لهم فى هذا الفيء نصيب . قال : فلما جاء الفتح وانقطعت الهجرة قال رسول الله ﷺ : لا هجرة بعد الفتح . وكثر الإسلام . وتوارث النّاس على الأرحام حيث كانوا . ونسخ ذلك الذى كان بين المؤمنين والمهاجرين ، وكان لهم فى الفيء نصيب ، وإن أقاموا وأبوا ، وكان حقّهم فى الإسلام واحدا . المهاجر وغير المهاجر . والبدوى وكل أحد حتى جاء الفتح »

وإذا كانت الآية الكريمة قد محت ما تبيّنّا ، فإنّها أثبتت الحكم الذى كان مسطرا فى اللوح المحفوظ ، والباقى بإرادة الله تعالى إلى أن يرث عزّ وجل الأرض ومن عليها ، والّذى تضمنه القرآن الكريم آيات تُتْلى واشتملت عليه السنة المطهرة أحاديث تروى . قال تعالى : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ .

وإذا كان الميراث فى الإسلام ، قد تحول بإرادة الله تعالى من الحال المؤقتة إلى الحال المؤبّدة ، وفى ذلك التحوّل انصراف منافع من قوم إلى آخرين ، فإنّ الآية الكريمة تنبه إلى باب المعروف المفتوح ، الّذى يعوّض خيراً ذلك الذى كان يصحّ أن ينتفع من الفترة المرحلية المؤقتة المرتبط بها الحكم المنسوخ .

وبعد هذه النظرة الأولى للآية الكريمة ، نحن بحاجة إلى نظرة أخرى فمع أولى جزئيات الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ إنّ أهمّ صفة يتمتع بها المسلمون لله ربّ العالمين المتّقون هى صفة الإيمان . لأن هذه الصفة تكاد تكون العمود الفقرى لكلّ صفات الفضل التى يتحلّى بها المتقون . ولكلّ

نعوت الإحسان . ومن الأدلة على ذلك أنّ سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام مثلاً ، تنعت الذين آمنوا بالعديد من النعوت ، من كونهم يعملون الصّالحات ، ويؤمنون بما نزل على محمّد ﷺ ويتبعون الحق من ربهم ، الذى وصلهم عن طريقه عليه الصّلاة والسلام ، فى هيئة السنة المطهرة ، إضافة إلى القرآن الكريم ويجاهدون فى سبيل الله تعالى حقّ الجهاد بأنفسهم وأموالهم ، ويبذلون كلاً رخيصا فى سبيله جلّ وعلا ، وينصرونه جلّ وعلا بكلّ ماأوتوا من طاقة، وبكونهم على بينة من ربهم وبكونهم مؤمنين ، وأتوا العلم ، ومهديين قد زادهم الله تعالى إلى هداهم هدى ولا تلبث السّورة الكريمة بعد ذلك أن تنعت هؤلاء بأولى الصّفات وأساسها ، وهى صفة الإيمان التى تعتبر العمود الفقرى لكل تلك النعوت وذلك فى قوله تعالى[1] : **﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نُزّلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت فأوْلى لهم ﴾**

وها نحن أولاء بشأن الجزئية الكريمة الأولى من سورة الأحزاب ، أمام هذه الصفة المهمة للمسلمين لله ربّ العالمين ، وهى صفة الإيمان ، الّتى تتعلق بها كلّ الفضائل والخيرات . قال تعالى : **﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾**.

وممّا يزيد صفة الإيمان هذه توهُّجا وإشراقاً ، مجيئها فى نسق مع الطريقة الكريمة لإشارة القرآن الكريم إلى رسوله الحبيب ، من كونه نبيا ، وهى طريقة من جنس خطابه جلّ وعلا فى مطلع السّورة الكريمة لرسوله الكريم وذلك بالقول : **﴿ يا أيّها النبى ﴾** وقد عرفنا أنّ هذه الطريقة الكريمة دليلٌ على علوّ المكانة ورفعة الشّأن ونباهة الذّكر .

وما هو الأمر الجلل الّذى ينبه عليه المؤمنون المتقون فى هذا السياق الفريد والطريقة الكريمة من التعبير ؟ إنه أمر يتمشى مع جلال النبوة وصفة الإيمان ، أن يكون للنبى الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، من المنزلة فى نفوس المؤمنين المتقين ما ليس لمخلوق فى هذا الوجود ، بما فى ذلك أنفسهم الّتى يحبونها حُبّاً جمّاً . أن يفدوه ﷺ بالأرواح يبذلونها رخيصة فى فدائه ، فكيف بما يقل عن الأرواح منزلة . وإذا كانت

---

(١) سورة محمّد ٢٠ .

الأرواح تبذل ساعة القتال فداءه ، فإنّ ذلك بسبب الحبّ الذى يجعل المؤمنين المتّقين فى كل المواطن محبين له من الأعماق أشدّ من حبّهم أنفسهم ، على نحو قوله ﷺ ، كما جاء فى الصحيح : والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والنّاس أجمعين . وفى الصّحيح أيضاً أنّ عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله : والله لأنت أحبُّ إلى من كل شىء إلاّ من نفسى . فقال ﷺ : لا يا عمر ، حتّى أكون أحب إليك من نفسك . فقال يا رسول الله : والله لأنت أحبُّ إلىّ من كل شىء حتّى من نفسى . فقال ﷺ : الآن يا عمر . ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾[1] .

وكى تتّضح بعض الأبعاد العميقة لهذه الجزئية الكريمة الّتى تخصّ المؤمنين بنوع من الحبّ له ﷺ : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ فى إمكاننا أن نتحول إلى موقف آخر تحدّثت عنه سورة مدنية أخرى ، نزلت متأخّرة عن هذه السّورة الكريمة ، بل إنّها من آخر السّور نزولا وهى سورة براءة . وهذا الموقف هو الّذى يتم فيه إغراء بعض أهل المدينة ومن حول المدينة من الأعراب ، بألاّ يتخلّفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . إنّ هاتين الفئتين من البشر ، يُقلّب لها الكلام على الكثير من وجوهه ، والعديد من جوانبه ، فى تلك الفترة المتأخّرة من حياته ﷺ بألاّ يتخلّفوا عن الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وألاّ ينكصوا عن لقاء الكافرين وقتالهم قتالاً مريراً . إنّ الكثير من الإغراءات لهذا الفريق من النّاس تقدّم فى قوله تعالى[2] : ﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفّار ولا ينالون من عدوّ نَيْلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلاّ كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . إنّ هذه الإغراءات تقدّم لهذا الفريق من النّاس ، فى فترة متأخرة من فترات نزول القرآن الكريم . ومن حياته ﷺ . بينما يجىء عن المؤمنين المتقين قبل

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٧/٣ .

(٢) سورة براءة ١٢٠ ، ١٢١ .

ذلك فى سورة الأحزاب قوله تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ . ولا مجال للمقارنة بين موقف الفريقين من النّاس، بين موقف المؤمنين الذين بذلوا بالفعل أرواحهم رخيصة فى سبيل الله تعالى ، وفداء لنفسه ﷺ ، كما هو الحال فى موقعة أحد مثلا ، وبين موقف بعض الأعراب حول المدينة . وبعض أهل المدينة . ولا عجب أن يكون ثمّة فرق شاسعٌ بين ما يطلبه القرآن الكريم من المؤمنين المتقين فى مثل قوله تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ وهم الّذين يصدقون الله تعالى دائماً وأبداً ، فيما عاهدوا الله تعالى عليه ، وبين ما يطلبه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مِنْ أمور ، يتدرج معهم فى حقها من سهلها إلى صعبها ، من هينها إلى جليلها ، على نحو ما جاء فى سورة براءة فى الوقت الّذى يجىء عن هذا الفريق المتأخر قوله تعالى[1] : ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرّتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم** ﴾ . إنه على قدر أهل العزم تأتى العزائم . وقد جاء عن هؤلاء الأعراب قوله تعالى[2] : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما يُنْفق مَغْرما ويتربَّص بكم الدّوائر عليهم دائرة السّوء ، والله سميعٌ عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرّسول ، ألا أنّها قربةٌ لهم . سيدخلهم الله فى رحمته ، إنّ الله غفور رحيم** ﴾. وإنّ الّذى يُطْلب من المؤمنين المتقين مِنْ جنْس سموّ إيمانهم . أن يكون النبى ﷺ أولى بهم من أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ .

وفى الإمكان أن ننظر إلى هذه الجزئية الكريمة من أكثر من جانب .

أوّلاً : الجزئية الكريمة تنصّ على أنّ النبى ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فهو الّذى ينبغى أن يكون أحبّ وأكرم إلى المؤمنين من أنفسهم . ولا تكتفى الآية الكريمة بأى مرحلة تسبق هذه المرحلة التى ليس بعدها مرحلة . إذ المعروف أنّ النفس غالية جدّاً . وإذا كانت النفس إنّما تُبْذَل مقابل ما هو أغلى منها ، فإنّ ذلك الأغلى ،

---

(١) سورة براءة ١٠١ .

(٢) سورة براءة ٩٧ ــ ٩٩

إنّما هو الرّسول الكريم الذى تعتبر طاعته طاعة لله تعالى .

ثانياً : هذه المرحلة العالية الرّفيعة الّتى تنص عليها الآية الكريمة ، تشمل بذل النّفس رخيصة فى سبيل الله تعالى ، فداء له ﷺ . كما تشمل طاعته ﷺ ، التى هى مِنْ طاعة الله تعالى . فهؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، فدوه بكل نفس ونفيس . وما أكثر الآيات القرآنية التى أمرت بطاعته ﷺ . وقد أشارت هذه السّورة الكريمة إلى كونه ﷺ هو الأسوة الحسنة . فينبغى أن يتّبع بأمر الله تعالى فى كل صغيرة وكبيرة .

ثالثاً : لقد ترجم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم معنى هذه الجزئية الكريمة إلى عمل . وإذا كان الجود بالنفس هو أقصى غاية الجود ، وكان أكبر الأدلة على صحة الاعتقاد وصدق اليقين ، فإنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ، قد قاموا بذلك خير قيام . وقد أثنى الله تعالى عليهم فى محكم كتابه . ومن ذلك ثناؤه جلّ وعلا على شهداء أحد . ومعروف أنّ عدداً منهم قد استشهد فداء له ﷺ . قال تعالى :[1]

﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا ﴾ .

رابعاً : إذا كان بعض الّذين ترجموا إلى عمل حبّ المصطفى ﷺ ، أكثر من حبّهم أنفسهم ، قد أكرمهم الله تعالى بالشّهادة ، فإنّ الّذين ينتظرون هذه الشّهادة قد ترجموا إلى عمل حُبّهم له ﷺ بأكثر من حبّهم أنفسهم ، وذلك بترجمتهم إلى عمل كلّ تعاليم القرآن الكريم ، وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين . إنّهم فى سبيل مرضاة الله تعالى يئدون كل رغبة لهم وهوى ، بل إنّهم أسعد خلق الله تعالى بأن يطبقوا تعاليم السماء ، بل أن يكونوا هم أنفسهم ميدان تطبيق تعاليم السّماء . لقد بلغ حبّ هؤلاء المؤمنين المتقين للرّسول الكريم أن كان الواحد منهم ، لوفُرض أن النَّعْل قد زلت به ، فارتكب ذنباً أو فاحشة ، يبادر إلى الاعتراف بين يدى رسول الله ﷺ ، كى ينفذ فيه حكم الله تعالى . ولو كان الحدّ الذى سينفذ فى حقّه رجما بالحجارة حتّى الموت ، بسبب ارتكاب جريمة الزّنا لأنّه محصن . وهكذا نتبين تطبيق

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

هؤلاء المؤمنين المتقين الفعلى لقوله تعالى :[1] ﴿ **فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ .

خامساً : كان ﷺ فى صدر الإسلام لا يصلّى على ميت عليه دين . فلمّا فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فمن توفى وعليه دبن فعلىَّ قضاؤه . ومن ترك مالاً فلورثته . أخرجه الصّحيحان[2] وفيهما أيضاً : فأيُّكم ترك دينا أو ضياعاً فأنا مولاه[3] .

سادساً : فى هذه السّورة الكريمة درس عملى بعد هذا التوجيه للمؤمنين والمؤمنات بأنه ﷺ أولى بهم من أنفسهم . وذلك فى حقّ زينب بنت جحش وأخيها عبد الله ، اللذين استنكفا أن يتزوّج زيد بن حارثة مولى النبى ﷺ ، زينب بنت جحش . قال تعالى :﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾.

سابعاً : يستطيع المؤمنون المتقون بعون من الله تعالى وتوفيق ، أن يترجموا إلى عمل قوله تعالى : ﴿**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ لأنّا بفضل الله تعالى نعرف كل صغيرة وكبيرة من حياته ﷺ . وبذلك تحقق الأسوة الحسنة فيه ﷺ ، كما نص على ذلك القرآن الكريم الذى تكفل الله تعالى بحفظه إلى أن يرث عزّ وجل الأرض ومن عليها . ومعروف أنّ السنة المطهرة مبيّنة للقرآن الكريم وموضحة . قال تعالى :[4] ﴿ **وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون** ﴾ وقال تعالى :﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ يقول الزّمخشرى :[5] النبى أولى بالمؤمنين فى كل شىء من أمور الدين والدّنيا من أنفسهم . ولهذا أطلق ولم يقيد . فيجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم ، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها ، وحقّه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها . وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه ، إذا أعضل خطب ، ووقاءه إذا لقحت حرب . وألاّ يتبعوا

---

(١) سورة النساء ٦٥ .
(٢) تفسير القرطبى ٥٢٠٣ وانظر صحيح البخارى ١٤٥/٦ .
(٣) تفسير القرطبى ٥٢٠٤ .
(٤) سورة النحل ٤٤ .
(٥) الكشاف ٥٣٠/٢ .

ما تدعوهم إليه نفوسهم ، ولا ما تصرفهم عنه . ويتبعوا ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ ، وصرفهم عنه . لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين . وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار »

فإذا تحوّلنا إلى الجزئية الكريمة التّالية ، قال تعالى : ﴿ **وأزواجه أمّهاتهم** ﴾ استطعنا أن نربط بينها وبين أمرين ، أحدهما يسبقها ، والآخر يتأخر عنها . أمّا الأمر الذى يسبقها فهو المتعلق بالآية الكريمة الرّابعة فى السّورة تلك الآية التى تبين وجه الصواب فى أمور ثلاثة . وثانى هذه الأمور الثّلاثة نفى جعل الأزواج ، اللاّئى يظاهر منهن أزواجهن أمّهات ، ونفى تنزيلهن منزلة الأمّهات . وأما الأمر الذى يتأخر عنها فهو تعيين السّورة الكريمة هذه ، فى الآية الكريمة الثّالثة والخمسين ، طبيعة النظرة الّتى ينبغى أن ينظر خلالها المؤمنون إلى زوجات المصطفى ﷺ أمّهات المؤمنين . فبما أنّ الوالدة شخص آخر غير الزّوجة تماماً ، وبما أنّ زوجاته ﷺ قد نزلن منزلة الأمّهات الحقيقيات ، فقد أثبت الشّرع لهن بعض حقوق الأمومة ، وذلك فى قوله تعالى خطابا للمؤمنين : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إنّ ذلكم كان عند الله عظيما** ﴾ .

إنّا لو قارنا بين الأقوال الثّلاثة «**وما جعل أزواجكم اللاّئى تظاهرون منهن أمّهاتكم** » « **وأزواجه أمّهاتهم** » « **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إنّ ذلكم كان عند الله عظيما** » لتبينا أنّ ميدان الأقوال كلّها الأمومة والزّوجية . ففى المناسبة الأولى نفى تحوّل الزّوجة المظاهرة منها أمّا . وفى المناسبة الثّانية النفى الضمنى لأى خاطر بتزوج إحدى زوجات المصطفى ﷺ بعده ، لأنهن بمنزلة الأمّهات الحقيقيّات . وفى المناسبة الثّالثة التّصريح بذلك النفى . إذ كيف يصحّ شرعا وعقلا أن يتزوج المرء والدته ؟

وإنّ القرآن الكريم ذاته قد بين فى العديد من المواضع الفروق فى طبيعة العلاقة بين كل من الزّوجة والوالدة . وهذه الفروق وإن كانت معروفة بالفطرة والطبيعة . فإنها لا ينبغى أن تمحى للدرجة التى تتحوّل معها الزّوجة أمّا ، كما هو الحال فى الظّهار . والّتى تتحوّل معها الأمّ زوجة ، كما هو الحال بشأن أمهّات المؤمنين ،

زوجات المصطفى ﷺ ، حينما ظن البعض أنّ فى إمكانه أن يتزوّج بعضهن بعد وفاته ﷺ • إنّ الزّوجات ينبغى أن يظللن زوجات . وإنّ الأمّهات ينبغى أن يظللن أمّهات . قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** ﴾ .

ومن الآيات القرآنية الّتى تبين طبيعة العلاقة بين الزّوج وزوجه قوله تعالى فى سورة الروم :[1] ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة . إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وقوله تعالى فى سورة الأعراف :[2] ﴿ **هو الّذى خلقكم من نفْس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلمّا تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرّت به ، فلمّا أثقلت دعوا الله ربهمُا لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين** ﴾ وقوله تعالى فى سورة النساء :[3] ﴿ **يا أيُّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبا** ﴾ . إلى غير ذلك من آيات كريمات . ومن الآيات القرآنية الكريمة الّتى تبين طبيعة العلاقة بالوالدين ، الوالدة على جهة الخصوص قوله تعالى :[4] ﴿ **وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانا . إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّيانى صغيرا** ﴾ وقوله تعالى :[5] ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾ وقوله تعالى[6] ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمُّه كُرْها ووضعته كُرْها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنّى من المسلمين** ﴾ .

---

(١) الآية ٢١ .
(٢) الآية ١٨٩ .
(٣) الآية ١ .
(٤) سورة الإسراء ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) سورة لقمان ١٤ .
(٦) سورة الأحقاف ١٥ .

إن القرآن الكريم ، بآياته البينات ، يعمق ما تدركه الفطرة السّوية من الفرق الجوهرى بين طبيعة العاطفتين تجاه كل من الوالدة والزّوجة . وإذا كانت الآية الكريمة قد قررت للمصطفى ﷺ أرفع الدّرجات الّتى يمكن أن ينالها بشر ، بأن يكون أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإنّ زوجاته ﷺ ، اللاّئى ارتبطن به عليه الصّلاة والسّلام برباط الزّوجية ، قد نلن بذلك أعظم شرف ، إضافة إلى كونهن رضوان الله تعالى عليهن قد آثرْن الله ورسوله والدّار الآخرة على الحياة الدّنيا وزينتها ، فكان لهن بسبب ذلك ، المنزلة من التكريم والتبجيل والتّوقير والاحترام فى طهر ونقاء ، تلك المنزلة الّتى لا تكون إلاّ للأمّهات الحقيقيّات . وإنّ طريقة الآية الكريمة فى التعبير ، يتبيّن منها أنّ أزواجه ﷺ ، لهن منزلة الأمّهات فعلا ، لأنّ الآية الكريمة تنزلهن فعلا تلك المنزلة . يقول الزّمخشرى :[1] وأزواجه أمّهاتهم ، تشبيه لهن بالأمّهات فى بعض الأحكام ، وهو وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن . قال الله تعالى : ﴿ **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** ﴾ . وهنّ فيما وراء ذلك بمنزلة الأجنبيّات . ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها : لسنا أمّهات النّساء . تعنى أنهن إنمّا كنّ أمّهات الرّجال لكونهن محرّمات عليهم كتحريم أمّهاتهم . والدّليل على ذلك أنّ هذا التّحريم لم يتعد إلى بناتهن . وكذلك لم يثبت لهن سائر أحكام الأمّهات »

ويلاحظ أن هذه الجزئية الكريمة : ﴿ **وأزواجه أمهّاتهم** ﴾ تقع بين جزئيتين كريمتين ، تضمنتا صيغة التفضيل « **أولى** » « **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** » « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** »يعنى تنزيل أمّهات المؤمنين منزلة الأمّهات الحقيقيّات أنّ منزلة الأمّ هى الأعلى ، وأنها حين تتزاحم الحقوق ، بحسْن المعاملة هى الأوْلى وبهذا يتبين أنّ هذه الجزئية الكريمة : « **وأزواجه أمّهاتهم** » تعتبر مظهرا من مظاهر تكريم الله تعالى للوالدة فى كتابه الكريم ، إضافة إلى تكريم زوجات المصطفى ﷺ .

فإذا تحولنا إلى الجزئية الثّالثة ، قال تعالى : ﴿ **وألو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا** ﴾استطعنا أن نضم إليها التذّييل ﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ لأنّ ارتباطه معنويّاً بهذه

---

(١)الكشّاف ٢/٥٣١ .

الجزئية الثّالثة ، أكثر من ارتباطه بالجزئيتين السّابقتين . فإذا كنا بشأن الجزئيتين السّابقتين نستطيع أن نقول إنّه سبق فى كتاب الله تعالى أن النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأنّ أزواجه أمّهاتهم ، فالمعروف أنّ هذه تعاليم فى حكم الجديدة من نوعها . إذ فهم المسلمون أنّ النبى ﷺ أولى بهم من أنفسهم . ولعلّ بعضهم قبل ذلك ، رغم حبّه للنبى ﷺ ، لم يكن بعد مهيّئاً للوصول بذاته إلى هذه المرتبة الرّفيعة ، التى نبهت عليها ، الجزئية الكريمة ورفعت المؤمنين المتّقين إليها . كما فهم المسلمون أنّ أزواجه ﷺ فى حكم الأمّهات . ولعلّ البعض حدّثته نفسه بأن يتزوّج بعض أمّهات المؤمنين بعد وفاته ﷺ ، وقد أرشدت الجزئية الكريمة المؤمنين إلى وجه الحقّ فى هذه المسألة . أمّا فيما يتصل بالجزئية الكريمة الثّالثة المتصلة بالميراث ، وكون أولى الأرحام أولى به من المؤمنين والمهاجرين ، فإنها تنسخ حكْما سابقا. إن هذا الحكم « وإن كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنّه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشّرعىّ . والله أعلم[1] »

وقد أحسن القرطبى فى تفسيره الحديث عن هذه الجزئية الكريمة ، « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين** » ونوطىء بين يدى قوله بأنّ هذه الآية الكريمة نسخت كلّ وسائل الميراث السّابقة من إيمان وهجرة وأخوة فى الإسلام وولاء أو حلف ، من عادات الجاهلية أساساً ووسائلها للحصول على ذلك الميراث . يقول القرطبى[2] « وفيه قولان : أحدهما أنّه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال[3] : «**والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا** فتوارث المسلمون بالهجرة . فكان لا يرث الأعرابى المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئاً حتّى يهاجر . ثم نسخ ذلك فى هذه السّورة بقوله : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** والثّانى أنّ ذلك ناسخ للتّوارث بالحلف والمؤاخاة فى الدّين . روى هشام بن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٦ .
(٣) الآية ٧٢ .

عروة عن أبيه عن الزّبير . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله . وذلك أنّا معشر قريش لمّا قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا . فوجدْنا الأنصار نعم الإخوان ، فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم . فآخى أبو بكر خارجة بن زيد . وآخيت أنا كعب بن مالك . فجئت فوجدت السّلاح قد أثقله . فوالله لو قد[1] مات عن الدّنيا ما ورثه غيرى . حتّى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا . وثبت عن عروة أنّ رسول الله ﷺ آخى بين الزّبير وبين كعب بن مالك . فأرتث[2] كعب يوم أحد . فجاء الزّبير يقوده بزمام راحلته . فلو مات يومئذ كعب عن الضح والرّيح[3] لورثه الزّبير . فأنزل الله تعالى : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ فى كتاب الله ﴿ فبين الله تعالى أنّ القرابة أولى من الحلف . فتركت الوراثة بالحلف ، وورثوا بالقرابة.... فى كتاب الله يحتمل أن يريد القرآن . ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذى قضى فيه أحوال خلقه »

وإذا كانت الجزئية الكريمة تشير إلى قيمة الرّحم فى الإسلام ، فما أكثر الآيات القرآنية الّتى أمرت بأن يصل المؤمنون ما أمر الله تعالى به أن يوصل . وما أكثر الأحاديث النبوية الشّريف فى الموضوع ، فإن الأمر الّذى لا ينقضى العجب منه هو مبدأ الأخوّة فى فجر الإسلام ، مظهراً من أقوى مظاهر الأخوّة الإسلامية . وقد ثبت بما لايدع مجالاً للشك بأنّ الأخوّة الدّينية أقوى من أىّ علاقة أخرى . وقد ضرب الأنصار رضوان الله تعالى عليهم المثل الأعلى فى التضحية والإيثار . حتّى إنّ القرآن الكريم قد أثنى عليهم كلّ الثّناء . وكانت هذه الأخوّة فى الإسلام بين المهاجرين والأنصار من القوة للدّرجة الّتى ورثت المهاجرىّ من الأنصارى ، والأنصارى من المهاجرىّ ، علما بأن المهاجرين كانوا فى مجموعهم فقراء . حتّى إذا عزّ الإسلام ، ودخل النّاس فى دين الله تعالى أفواجاً ، شاءت العناية الإلهية أن تعود الرّحم للقيام بدورها فى مجال الميراث . قال تعالى : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . كان ذلك**

---

(١) فى الأصل لقد وفى ابن كثير ٤٦٨/٣ « لومات » .

(٢) الأرتثات : أن يُحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

(٣) الضحّ بالكسر ضوء الشّمس إذا استمكن من الأرض . أرادلو مات عمّا طلعت عليه الشّمس وجرت عليه الرّيح . وكنى بهما عن كثرة المال .

فى الكتاب مسطورا ﴾ يقول ابن كثير[1] :«وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة الّتى كانت بينهم. كما قال ابن عبّاس وغيره . كان المهاجرىّ يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوّة الّتى آخى بينهما رسول الله ﷺ . وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السّلف والخلف . وبذلك نسخت آية الأحزاب قوله تعالى من سورة النسّاء[2] :**﴿ ولكلّ جعلنا موالى ممّا ترك الوالدان والأقربون . والّذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إنّ الله كان على كل شى شهيدا ﴾** . وقد جاء فى الجلالين تفسير الآية الكريمة على النحو التالى : ولكلّ من الرّجال والنّساء ، جعلنا موالى ، عصبة يُعْطَوْن . ممّا ترك الوالدان والأقربون ، لهم من المال . والّذين عقدت : بألف ودونها[3] أيمانكم ، جمع يمين ، بمعنى القسم أو اليد . أى الحلفاء الّذين عاهدتموهم فى الجاهلية على النصرة والإرْث . فآتوهم الآن نصيبهم ، حظوظهم من الميراث وهو السدس . إنّ الله كان على كلّ شىء شهيدا . مطلعا ، ومنه حالكم . وهذا منسوخ بقوله : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** » .

وقد قال القرطبى بشأن المؤمنين والمهاجرين[4] : قيل : إنّه أراد بالمؤمنين الأنصار ، وبالمهاجرين قريشا » والمعروف أنّ ذكر المهاجرين فى القرآن الكريم يتقدم بصريح اللفظ الأنصار . ومن الجائز أن نضيف إلى ما سجله القرطبى بأنّ لفظة المؤمنين تشمل كلاً من المهاجرين والأنصار . فثمة أكثر من آية كريمة فى القرآن الكريم ، جمعت بين الإيمان والهجرة . ومن ذلك مثلا الآيتان الثّانية والسّبعون والرّابعة والسّبعون من الأنفال . ثمّ إنّ الّذين استفادوا من الأخوّة الإيمانية ، أكثر من الآخرين هم المهاجرون الفقراء .

وقوله تعالى :**﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾** أى فى حكم الله[5] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٨/٣ .

(٢) الآية ٣٣ .

(٣) يريد عاقدت وعقدت . انظر هنا مثلا مختصر تفسير ابن كثير ٣٨٤/١ .

(٤) تفسير القرطبى ٥٢٠٥ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٦٨/٣ ويلاحظ أنّ القرطبى يفسّره بالقرآن أو باللوح المحفوظ ص ٥٢٠٦ .

وإذا كانت الجزئية الكريمة قد منعت التوارث بسبب الأخوّة الإيمانية والهجرة ، فقد أبقت كلّ ما وراء ذلك من أوجه المعروف والبرّ من الوصيّة والصّلة والإحسان والنّصر وما إلى ذلك . يقول الزّمخشرى[1] : فإن قلت : ممّ استثنى : أن تفعلوا : قلت : من أعمّ العامّ فى معنى النّفع والإحسان ، كما تقول : القريب أولى من الأجنبىّ إلاّ فى الوصيّة . تريد أنّه أحقّ منه فى كلّ نفع ، من ميراث وهبة وهدية وصدقة وغير ذلك إلاّ فى الوصيّة . والمراد بفعل المعروف التّوصية ، لأنّه لا وصية لوارث» « وعدى تفعلوا بإلى ، لأنّه فى معنى تسدوا وتولوا »[2]ومسطورا مِنْ قولك : سَطَرْت الكتاب ، إذا أثبته أسطارا[3] وهذه الجملة متسأنفة كالخاتمة لما ذكر من الأحكام[4] وقوله تعالى : « **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** » أى هذا الحكم ، وهو أنّ أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأوّل الّذى لا يبدل ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد . وإن كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنّه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشّرعى والله أعلم[5] »

وإذا كان من العلماء من فسر الكتاب باللوح المحفوظ كالطبرى[6] فإنّ من العلماء من فسّره باللوح المحفوظ أو بالقرآن كأبى حيّان[7] .

فإذا تحوّلنا إلى الآيتين الكريمتين التّاليتين والأخيرتين فى القسم ، قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النّبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما** ﴾ استطعنا أن نتبين ببساطة التّلاحم بينهما ، كما نستطيع أن نتبين وراء ذلك التّلاحم بينهما من ناحية ، وبين ما سبقهما من آيات من ناحية أخرى .

---

(١) الكشّاف ٥٣١/٢ .

(٢) الكشّاف ٥٣١/٢ وانظر هنا البحر المحيط ٢١٣/٧ ففيه«المعنى إلاّ أن توصلوا » .

(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٨ .

(٤) البحر المحيط ٢١٣/٧ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٦٨/٣ .

(٦) تفسير القرطبي ٧٩/٢١ .

(٧) البحر المحيط ٢١٢/٧ .

فلنصغ فى هذا المجال لآراء العلماء . يقول الطبرى فى تفسيره مبينا العلاقة بين نهاية الآية الكريمة السّابقة وأولى الآيتين الكريمتين[1] : يقول تعالى ذكره : كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، إذ كتبنا كلّ ما هو كائن فى الكتاب ، وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم كان ذلك أيضاً فى الكتاب مسطورا » ويقول القرطبى[2] « وإذ أخذنا من النّبيين ميثاقهم ، أى عهدهم على الوفاء بما حُملوا وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويُصَدّق بعضهم بعضا ، أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن وحين أخذ الله المواثيق من الأنبياء » وقد فصّل أبوحيان الحديث فى هذه العلاقة ، إذ بين التّرابط بين الآية الكريمة وبين الآيات الكريمات السابقة وليس الآية السابقة وحدها . يقول[3] : ولما كان ما سبق أحكام عن الله تعالى ، وكان فيها أشياء ممّا كانت فى الجاهلية ، وأشياء فى الإسلام نسخت ، أتبعه بقوله : وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، أى فى تبليغ الشرائع والدّعاء إلى الله ، فلست بدعا فى تبليغك عن الله . والعامل فى إذ ، قاله الحوفى وابن عطية ، يجوز أن يكون مسطورا . أى مسطورا فى أمّ الكتاب وحين أخذنا . وقيل : العامل واذكر حين أخذنا . وهذا الميثاق هو فى تبليغ رسالات الله ، والدعاء إلى الإيمان ، ولا يمنعهم من ذلك مانع لا من خوف ولا طمع »

وفيما يتصل بأولى الآيتين الكريمتين ، نحن نودّ أن نتأملهما من الجوانب الممكنة لنا :

١ – أكثر العلماء ، بشأن الميثاق الّذى أخذ من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، والّذى تكرّر ذكره فى الآية الكريمة ، ذهب إلى كونه فى المرّتين بمعنى العهد[4] فهذا ابن كثير مثلاً يقول[5] : يقول تعالى مخبرا عن أولى العزم الخمسة وبقية الأنبياء ، إنّه أخذ عليهم العهد والميثاق ، فى إقامة دين الله تعالى

---

(١) تفسير الطبرى ٧٩/٢١ .
(٢) تفسير القرطبى ٥٢٠٩ .
(٣) البحر المحيط ٢١٣/٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ وانظر تفسير الطبرى ٧٩/٢١ وتفسير القرطبى ٥٢٠٩ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ .

وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى[1] : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم وكذلك هذا .. وقد قيل إنّ المراد بهذا الميثاق الّذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذر ، من صلب آدم عليه الصّلاة والسّلام .. وخصّوا بميثاق آخر من الرّسالة والنّبوة . وهو الّذى يقول تعالى : **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** وهذا قول مجاهد أيضاً . وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ العهد»وابن كثير فى قوله : حين أخرجوا فى صورة الذر ، يشير إلى قوله تعالى من سورة الأعراف[2] : ﴿ **وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتُهْلكنا بما فعل المبطلون** ﴾.

والزّمخشرى فى الكشاف[3] وأبو حيّان الّذى تبعه فى البحر المحيط[4] بعد أن صرحا بكون الميثاق فى المرّة الثّانية ، هو الأوّل بعينه ، أضافا بشأن الميثاق الغليظ ، بأنّه اليمين بالله على الوفاء بما حُمّلوا .يقول الزّمخشرى مثلا[5] : « فإن قلت فماذا أراد بالميثاق الغليظ ؟ قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . معناه وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقاً غليظا . والغلظ استعارة من وصف الأجرام . والمراد عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه . وقيل : الميثاق الغليظ اليمين بالله على الوفاء بما حملوا » .

٢ – يرتبط بعملية الأخذ فى القرآن الكريم الجدُّ والصرامة والعنف ، حتى إنّ هذه اللفظة هى التى تُسْتعْمل فى العادة دليلاً على إنزال العذاب بمستحقيه . ومن أوضح الأمثلة فى القرآن الكريم على عملية الأخذ بهذا المعنى قوله تعالى من سورة

---

(١) سورة آل عمران ٨١ .
(٢) الآية ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) ٥٣٢/٢ .
(٤) ٢١٣/٧ .
(٥) الكشّاف ٥٣٢/٢ وانظر البحر المحيط ٢١٣/٧ .

هود[1] : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إنّ أخذه أليم شديد ﴾ ولأخذ العهد حظّه من الجد والصرامة .

٣ – بتأملنا من ذى قبل قوله تعالى فى صفة أولى الألباب من سورة الرّعد[2] : « الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » ومن زاوية النّظرة المقارنة بين العهد والميثاق[3] أمكن الذهاب بشأن العهد فى مثل قوله تعالى : ﴿ الّذين يوفون بعهد الله ﴾ إلى كون الجانب الذى روعى ، هو حقّ الذّات العلية الّتى أخذت العهد والميثاق . كما أمكن الّذهاب فى ضوء تنويع التعبير بذكر الميثاق فى القول : ولا ينقضون الميثاق، إلى أنّ الجانب الذى روعى فى هذه الحال ، من الجائز أن يكون جانب الإنسان ، من زاوية مسئوليته تجاه هذا الميثاق الّذى أخذ عليه ، والّذى ينبغى الوفاء بكلّ التزاماته فى حقه جلّ وعلاّ ، أو فى حقّ الإنسان أخى الإنسان . فى ضوء ذلك يمكن أن يفهم من الميثاق ، وتكراره ، ووصفه بالغلظ فى آية الأحزاب ، أنّ المراد تنبيه هذا الإنسان الظلوم الجهول ، بأنّ عليه الوفاء بالتزامات الميثاق الذى أخذ عليه .

وفى ضوء هذه النظرة يتبين أنّ الميثاق بمعنى العهد كما رأى ابن عباس[4] وفرق بين اللفظين أنّ العهد حينما يذكر يكون المقصود التنبيه إلى وجوب مراعاة جنب الله تعالى وإلى حقه جلّ وعلا ، ذلك الحقّ الذى ينبغى أن يصان . وأنّ الميثاق حينما يذكر يكون المقصود التنبيه إلى وجوب قيام الإنسان من جانبه ، على أحسن وجه بالواجبات المتعلقة به ، وقد أخذ عليه الميثاق . وبالمسئوليات الجسام الملقاة على عاتقه . وإنّ ذكر الميثاق مرّتين فى الآية الكريمة التى نحن بصددها ووصفه فى المرّة الثّانية بالغلظ ، يعمق المسئوليات العظام الملقاه على عواتق النبيين الكرام ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم . وتبدو هذه المسئولية أكثر وضوحا حينما نتبين أننا بصدد عطف الخاص ، أعنى أولى العزم من الرّسل على العام ، أعنى النبيين . وقد خوطب

---

(١) الآية ١٠٢ .
(٢) الآية ٢٠ .
(٣) تأملات فى سورة الرّعد ١٤٢ – ١٤٤ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣ وتفسير الطّبرىّ ٧٩/٢١ .

المصطفى ﷺ فى سورة الأحقاف بالقول[1] : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل ولا تستعجل لهم ، كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار ، بلاغ فهل يهلك إلاّ القوم الفاسقون** ﴾ وقد جاء ذكر أولى العزم من الرّسل فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها :﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ وفى قوله تعالى من سورة الشّورى[2] ﴿ **شرع لكم من الدّين ما وصى به نوحا والّذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾ لأن هؤلاء الخمسة أصحاب الشرائع والكتب وأولو العزم من الرّسل وأئمة الأمم[3] .

٤ – يلحق بلفظ الميثاق الضمير العائد على النبيين فيقال : « ميثاقهم » ولا يقال « الميثاق » وفى ضوء الوقوف على خطورة المسألة التى يتحدث عنها السياق وملابساتها ، نستطيع أن نفهم ما يؤكّد ضخامة مسئولية هؤلاء النبيين تجاه ما أخذ عليهم من ميثاق . إنّ الميثاق هنا لم يؤخذ من أناس عاديين ، ومع ذلك فعدم نقض الميثاق مهمّ ، والوفاء بالعهد ضرورى . إنه أخذ من صفوة خلق الله تعالى . فهو بإضافته إليهم ، معناه ، أنّ الوفاء به ، بعون الله تعالى ، أمر مفروغ منه . والقيام بتبعاته ومشقاته أمر لا مفر منه . فكيف إذا كان الحديث يوجه على جهة الخصوص إلى أولى العزم من هؤلاء النبيين . بل كيف إذا كان الحديث فى حقيقة الأمر يوجه إلى صفوة الصفوة ، إلى خير خلق الله تعالى كلهم ، محمّد بن عبد الله ﷺ ، خاتم النبيين ، وأشرف المرسلين ، وإمام المتقين والمجاهدين .

٥ – نصّ السّياق على هؤلاء النبيين الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاصّ على العام[4] .

٦ – للآية الكريمة مثل ما لغيرها من الآيات الكريمات مِنْ ظاهرة تلاؤم

---

(١) سورة الأحقاف ٣٥ .
(٢) الآية ١٣ .
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٢٠٩ .
(٤) تفسير ابن كثير٣/٤٦٩ .

الأصوات خدمة للمعنى ، وإحقاقا للحقّ ، ومراعاة للزمن فلو أننا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية الأقسام تبين أنّها تتكوّن من ثلاثة أقسام ، الصدر ، والعجز ، وما بينهما . وممّا هو لافت للانتباه التجانس معنويا وصوتيا بين الصّدر والعجز . فإذا كان الموضوع واحدا ، هو الميثاق وتأكيده . فإنّ الصدر يتكوّن من حروف تقارب عدد حروف العجز ، ولذلك مِنْ حُسْن الأثر فى النفس ما لايخفى . إنّ الصّدر «**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم**» إذا كان يتكوّن من أربعة وعشرين حرفا ، فإنّ العجز « **وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا** » يتكوّن من واحد وعشرين حرفا .

فإذا تجاوزنا إلى صُلْب الآية الكريمة ، راعنا فى نظمها أكثر من أمر ، ويمكن أن يتبين ذلك على النحو التالى :

(أ) على الرّغم من أنّنا إزاء الحديث عن خمسة مِنْ رُسُل الله تعالى ، فإنّ الحديث عنهم يجيء فى صورة رفيعة من جمال النظم وجلاله . إنّ الحديث عن الأربعة الأول ، وزع على مجموعتين متجانستين صوتيا . وبما أنّ خامسهم ، له حال خاصة به ، فهو ابن مريم ، فقد حققت هذه الزّيادة « ابن مريم » التجانس الذى تحقق بشأن الأربعة الأول ، حينما كان الحديث على وتيرة واحدة ، عن كل اثنين على حدة . وبهذا تحقق من التجانس الصوتى ، منتهى ما يمكن أن يحققه كلام أقرب إلى النثر منه إلى أى شيء آخر . وهذه هى الطريقة الفريدة الفذة للحديث عن أولى العزم هؤلاء .

ومنك ومن نوح
وإبراهيم وموسى
وعيسى ابن مريم

إنّ جمال النظم يحملك على أن تحس فى الأعماق بجلال الحديث عن كل شخصين كريمين على حدة . عن محمّد ونوح عليهما الصّلاة والسّلام . وعن إبراهيم وموسى عليهما الصّلاة والسّلام . وعن عيسى عليه الصّلاة والسّلام ومريم البتول والدته . وهكذا يتجلى التجانس بين الصدر وبين العجز . كما يتحلى فى صلب الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا** ﴾ .